الأقصوصة الروسية الحديثة

بقلم : ا . تاراسنكوف

نقلها الى العربية : منير البعلبكي

في تراث الادب الروسي الكلاسيكي الضخم ، الذي كان دائماً معين وحي لا ينضب لكتابنا المحدثين ، تنعم الاقصوصة الروسية بمركز ممتاز . فـ « العربة » لغوغول ، و « تامان » للرمونتوف ، و « اوراق رجل رياضي » لتورغنيف ، و « فارسان » لتولستوي ، و « السيدة ذات الكلب » و « المنزل ذو العليّة » لتشيكوف ، و « ستة وعشرون رجلاً وفتاة » ، و « ماكار شودرا » و « ايزرجيل العجوز » لمكسيم غوركي — كل هذه ليست غير نماذج قليلة من الجواهر النفيسة التي ابدعها اساتذة القصة الروسية العظام .

ومع ذلك فحين نقارن ما بين المركز الذي تحتله الاقصوصة في الادب الكلاسيكي الروسي والمركز الذي تحتله في الادب السوفياتي الحديث لا يفوتنا ان نلاحظ ان كتّاب اليوم يؤثرون النفَس الطويل — نفس الكتب والريبورتاجات — الذي يشغل في عهدنا هذا معظم حقول الصحف الادبية الصادرة في الاتحاد السوفياتي .

ولكن المسألة ليست مسألة ايثار للقصة على الاقصوصة ، او للاقصوصة على القصة ، فللأقصوصة وظيفة هامة وضرورية كوظيفة القصة . إنها تفسح المجال واسعاً لتصوير المواقف والنزاعات النموذجية ، وتتطلب قدراً رفيعاً من البراعة الادبية . انها لا تستطيع ان تقدم لوحات جارفة . ولكنها تجتزيء بأن تعكس جانباً صغيراً واحداً من جوانب الحياة . انها لا تصوّر المجتمع كله ، ولكن فلذةً صغيرة نموذجية من الكلّ . بيد ان سحرها كامن في ايجازها نفسه ، في ميزة السرد الدينامي ، في ذلك الانضغاط الذي لا يترك متسعاً للحشو والترهل المفسدين لجميع الانواع الادبية .

وفي السنوات الماضية ، وبخاصة خلال الحرب الاخيرة ، اخرج الكتاب السوفيات عدداً صالحاً من الاقاصيص البارعة ، انتظمت مختارات منها مجموعةٌ صدرت حديثاً في ثلاثة مجلدات هي في الحق سجل يؤرخ لتطور القصة الروسية المعاصرة منذ نشأتها حتى اليوم .

ولو ألقينا نظرة على هذه المجموعة لوجدنا اقاصيص لميخائيل بريشفين ، الذي يبرع في وصف الطبيعة وصفاً شعرياً لا سبيل الى مضاهاته ، واقاصيص لبازهوف منتزعة من مجموعته « صندوق اليَشب » ، وحكايات من فزيفولود فيشنيفسكي تمجد بطولة البحارة في الحرب الاهلية ، وقصتين نابغتين بالحياة هما « والدنا » و « الراية » لفالانتين كاتاييف وهو كاتب ذو براعة ملحوظة في حبك العقدة وفي سرد التفاصيل وإدارة الحوار . وقصة « موكب الفرسان » لتيخونوف باوصافها البارعة لمشاهد القوقاز البرية وحياة رعاة الماشية . وقصة « المخرّب » لفيرا إينبر وهي تصور حياة الاطفال في لننغراد المحاصرة ، وتنبض بنَفَس دعابي رفيق يتكافأ والمأساة التي تمثلها القصة . كذلك نجد في هذه المجموعة اقصوصة « الافعوان » لألكسي تولستوي ، وهي مفرغة في اسلوب كلاسيكي صاف . واقصوصة « الحياة » وهي قوية باسلوبها الواقعي المكبوح . ليس هذا فحسب بل اننا نجد في هذه المجموعة نماذج من آثار كتّاب آخرين وثبوا الى القمة منذ الحرب العالمية الاخيرة على الرغم من ان بعضهم استهلّ حياته الادبية قبل ذلك بكثير ، من مثل ج. نيقولاييفا ، وم. بوبينوف ، و ج. غوليا ، و ف. ماتوف ، و ف. فومنكو ، و ي. ناجيبين .

وبالاضافة الى هؤلاء الكتّاب كسبت القصة الروسية الحديثة قاصين موهوبين آخرين هما س. زاليجين من سيبيريا و ف. دودينتسيف من موسكو . ولكن إطلالتهما على المسرح الأدبي كانت جدّ حديثة فلم يكن من سبيل الى ان تضم المجموعة التي نتحدث عنها شيئاً من آثارهما .

وإذ كانت هذه المجموعة تمثل باقة غنية كثيرة التنوع من الشخصيات، والأمزجة، والأساليب، والموضوعات، والمشكلات المتصلة بمختلف مراحل التطور التي مرّ بها المجتمع الروسي الحديث، ففي ميسورنا ان نعتبرها مثلا على تفتح الموهبة والشخصية المبدعتين تفتحاً ليس يتسنى نظيره في غير المجتمع الاشتراكي.

صحيح ان في المجموعات مواطن ضعف، وان ثمة نقاطاً كثيرة يمكن ان تكون موضع جدل بين المرء وجامعيها، ولكن الهدف الذي يرمي اليه الكاتب ههنا هو الكشف عن القواعد الرئيسية التي ينهض عليها بناء الاقصوصة الروسية المعاصرة لنرى بعد الى اي حد تأثرت بالقوانين المؤثرة في تطور الادب السوفياتي جملة.

خذ قصة غالينا نيقولايفا «موت قائد» مثلا، وهي أثر دينامي دراماتي تتجلى فيه بعض الخصال الرئيسية التي تميز الادب السوفياتي. فأما الشخصية الاولية في القصة فجندي من جنود المصفحات يدعى انطون، «كان ابداً يعي المعركة ككل، ويستشعر نفسه جزءاً شخصياً عن نتائج العمليات الحربية.» لقد وُلد انطون قائداً. «فرجاله يطيعونه على رغبة وفي تلهّف. حتى إذا اصيب في المعركة بجرح مميت، حُمل على متن «باخرة مستشفى» الى خارج ستالنغراد المحترقة. وفي الطريق تهاجم الباخرة طائرات المانية كانت تهبط واحدة إثر واحدة لتصب نيران مدافعها على

صدر الجزء الاول والثاني من :

شهرزاد

في ليالي الف ليلة وليلة

الموسوعة العربية الخالدة تظهر قريباً في سلسلة متتابعة مزدانة بالصور والرسوم الفنية الرائعة وباقلام لجنة مؤلفة من كبار الكتاب بلغة عربية سليمة غير مبتذلة ليتسلى بحوادثها الصغار وليسترشد الكبار بما تحتويه من نصائح وحكم وقد روعي فيها ان تكون تحفة لتخليد ذكرى الادب العربي القصصي

التي يصدرها مكتب المراسلات الدولية

بالاشتراك مع دار الثقافة بيروت تلفون : ٦٧/٣٥

٨٤ صفحة وغلاف ملون **ثمن النسخة ٥٠ قرشاً لبنانياً**

اطلبوها من المكتبات وباعة الصحف في جميع البلدان العربية

المركب الاعزل . وكان انطون مضطجعاً في مخدعه بالسفينة، وهو من العجز والضعف بحيث لا يستطيع ان يفكر بالقيام بمحاولة ما للنجاة بنفسه سباحة . وهنا تبرز كتيبة المانية على ضفة النهر وتقذف الباخرة المستشفى بقنابل مدافعها . ويتعاظم عدد الضحايا على ظهر الباخرة . ويُقتل كل من قائد الباخرة ومفوّضها . وتندلع النار ، وتجنح الباخرة الى الغرق قليـــلا قليلا . ويدفع انطون بحزام الحياة الخاص به الى كاترينـــا إيفانوفنا، طبيبـة الباخرة . إنه اعجز من ان يحاول السبح الى الشاطيء ، فهو لا يكاد يطيق حراكاً . فكان كل ما سألها إياه ان تأتيه ببندقيته وتساعده على ان يتخذ موقعـاً يستطيع ان يطلق منه النار .

ولكنها لم تستطع ان تحمل نفسها على مغادرتـــه . وفي انعطافة انثوية عاجزة ضغطت خدها على كتفه .

« وفيما هو يصارع الالم لامس رأسها ملاطفاً . ووجه اليها كلمات تبعث في النفس العزاء ، وكأنما كانت هيَ — لا هو — التي تنتظر الموت على ظهر هذه الباخرة . كان معترفاً بجميلها . ومرة اخرى عرف بهجة القوة والحماسة المتجددتين اللتين أوقعتهما انعطافتها العاجزة في ذات نفسه . »

بهذه الكلمات القليلة تبصّرنا نيقولا يفا تبصيراً مذهلاً صافياً بشخصية بطلها .

ويبقى انطون على متن السفينة المحترقة بعدان يُغري كاترينا إيفانوفنا بالمضيّ الى الشاطيء . إنه مستيقٍ هناك يطلق النار على العدو ، فيقتل منهم خلقاً كثيراً . واخيراً تصيبه احـدى الرصاصات العدوة ، ولا تكاد كاترينا ايفانوفنا تبلـغ الشاطيء وتتلفت الى الوراء قليلاً لتتزوّد بنظرة اخيرة حتى يكون كل شيء قد انتهى ، « وتنتشر مياه الفولغا الناعمة الثقيـلة انتشاراً واسعاً بعيداً . »

وبمثل سباق البَدَل ، سلّم انطون المحتضر بطريقـة ما ، مأثرة حياته الى كاترينا ايفانوفنا . ففيما هي تنهض من لجة المياه المثلوجة ، مرتجفة تحت وطأة ريح الخريف ، اذا بها تجد نفسها وقد انطوت اضلاعها على صورة انطون الذي سوف تظل عالقة ابداً في فؤادها . وحين تشقّ هي وصديقها سبيلها ، عائـدين الى ستالينغراد المحترقة ليواصلا القتال من اجل حرية شعبهما واستقلاله ، تفكّر كاترينا في رفيقها الشهيد ، وتأخذ على نفسها عهداً ان تتابع حمل رسالته من حيث تركها هو .

والحق ان كثيراً من الاقاصيص الروسية الحديثة تعكس صوراً من البطولة لا تقل روعة عن هذه ، ولكنْ في طرائق تختلف بقدر اختلاف الشخوص الذين يعيشون في تلك الاقاصيص . إن اساليبها الفنية تتميز بفردية بالغـة ، ولكن القاسم المشترك بينها جميعاً هو ذلك الايمان العجيب بالانسان بوصفه جزءاً من الشعب ، وبايمانها بشرف ابطالها وكرامتهم وقوتهم المعنوية ، وكلهم رجال ونساء قادرون على احتمال اقسى المحن وتحقيـق اسمى مآتي البطولة البشرية .

وإذا كانت مظاهر الحياة الروسية المعاصرة تجد تعبيرها في الاحداث ذات الاهمية التاريخية الكبرى ، من مثل جماعيـة الزراعة ، وموقعة ستالينغراد ، ومشاريع الدولة الانشائيـة الضخمة ، فان استشراقنا التقدميّ للحياة يمكن ان يجـد تعبيره كذلك ، في اشياء صغيرة وحوادث ثانوية في ميسور الكاتب الموهوب ان يرتفع بها الى اعلى مراتب التعميم .

والى هذا الضرب من الكتابة تنتسب قصتاً بيوتر بافلانكو : « الصوت الذي ينادي » ، و « قوة الكلمة » . والواقع ان ثمة رسالة ملهمة في هذه الاقاصيص الدينامية المومضة الدائرة على شؤون الحياة اليومية . وليس من ريب في ان التلاحم العضوي بين دعامتي الكتابة الابداعية — واقعية التصوير والرسالة الصريحة المباشرة — هو ميزة بافلانكو ككاتب .

ولكن هناك طرقاً اخرى لمعالجة هذه المشكلة المعقـدة . وهي تتمثل في كثير من البراعة والاصالة في اقصوصة سيرجي انطونوف (ولم تنشر مع الاسف في المجموعة لصدورها بعدها) وتدور حول عاملة مكتب مغمورة تستيقظ ، ولو متأخرة، على عظمة ما يجري حولها ، ويعمر قلبها شوق مبدع الى العمـل ، لتذهل بعدُ ، بعض الشيء ، ليقظتها تلك .

والقصة كلها كناية عن رفض للنفسية المنفعلة التي تكشفت عنها الشخصية الرئيسية . وههنا تكمن قوة هذه القصة . لأنه لا حب من غير نضال ، ولا إثبات من غير نفي .

وانطونوف يكره ان يتخذ المرء موقفاً رسمياً غير ابداعي من الحياة . انه يؤكد حق الانسان في ان يسرح في دنيوات الخيال ، وحقه في ان يخلق ، ويغامر ، ويحب ، مهما كلفه ذلك من الم ومشقة وحرمان . وهو يوحي دائماً بهذه الفكرة ، ويومىء اليها مجرد ايماء ، ومن غير ما نصّ صريح . وان القاريء ليستشعر ان انطونوف كاتب يؤمـــن بأنه كلما كانت نية المؤلف

مستترة كانت الانطباعة الفنية اعمـــق واقوى . ولكنه امتياز مـــن امتيازات القاص ان يختار طريقته الخاصة في وصف العالم كما يراه . وليس في استطاعة ناقـــد ان يزعم ان تأتّي آنطونوف الفني لا محل له ضمن إطار الواقعية الاشتراكية.

وفي الوقت نفسه يتعين على القاص فيما هو يصف مجرى الحياة العام من خلال مظاهره الثانوية ، ان لا يسمح لنفسه بالانحراف عن الموضوعات الرئيسية ، عن الفكرات الشاملة التي يتميز بها عصره ، وإلا وجد نفسه متخلفاً عن ركب التطور الاجتماعي .

وثمة اخطار اخرى تعترض سبيل المشتغل بكتابة القصة القصيرة ، وهي منعكسة الى حـد ما في هذه المجموعة . فقصة « ملازم ثانٍ ايضـــاً » ليوري تينيانوف — وهي قطعة ادبية بارعة — تعالج الماضي على نحو وهمي جمالي اكثر مما تعالجه على ضوء قوانين التاريخ الموضوعية . ومثل هذه المسحة من الجمالية المنفعلة تلمس في عدد من قصص الكاتب الموهـوب قسطنطين باوستوفسكي . ففي قصته « النطاق رقم ٢٧٣ » مثلاً — وقـد كتبت سنة ١٩٤٩ — يقع القارىء على كلام طويل يدورحول صورة ناصلة الالوان تمثل غاريبالدي ، ووصف متمهل بطيء لدراسة المؤلف لبعض الزهرات المجففة تحت زجاجة مكـبرة ، وشيء من الفلسفة الخلافية من مثل قوله : « إن سحر الحياة لا يكمن في توقع المستقبل والاستمتاع بالحاضر ، بـــل يكمن جزئياً في ذكريات المرء ايضاً . » ومن حق القارىء ان يتساءل عن مهمة هذه البضاعة التي تقرب ان تكون من سقط المتاع في قصة وقفها صاحبها على جمال الطبيعة الروسية ؟

وميزة ثانية تتكشف عنها الاقصوصة الروسية الحديثة هي تصويرها الضروب النّزاع والصراع . وليس في عصرنا اعظم من الصراع بين القديم والجديد ، بين الرجعية والتقدمية . ومن هنا نجـــد الاقصوصة الروسية المعاصرة تضع توكيداً شديداً على تفسخ النظم العتيقة ، وولادة عهد جديـد في تاريخ العلاقات الاجتماعية . وهذا ما تراه في « الافعوان » لألكسي تولستوي ، و « الفقر والثراء » لفاديييف ، و « النسيب البعيد » لجيرازيموفا ، وغيرها .

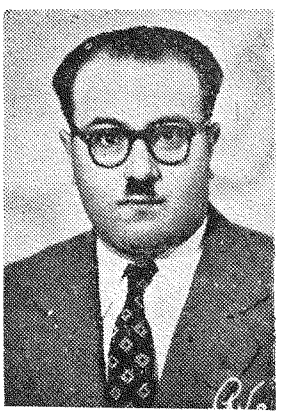

منير البعلبكي

بعض منشورات

مكتبة المعارف في بيروت

ساحة النجمة - شارع المتنبي

تلفون ٩٥ - ٦٢ بيروت

ق.ل		
٤٠٠	الانسان ذلك المجهول	الكسيس كاريل
١٠٠	الثقافة الغربية في رعاية الشرق الاوسط	ترجمة الدكتور عمر فروخ
٢٠٠	الشعراء الاعلام	عبد الله انيس الطباع
١٠٠	قهقهة الباطل وقصص اخرى	اميل خليل بيدس
١٠٠	الخوارج في الاسلام	عمر ابو النصر
١٠٠	مدرسة الغرام	ترجمة عمر ابو النصر
١٠٠	اميركي في البلاد العربية	« « «
١٠٠	لبنان في عهد الرئيس شمعون	عبد الرحمن الحص

إقرأ دائماً

كتـــاب الأهـــوال

سير القصة البوليسية والمغامرات

يصدر عن :

مكتبة المعارف في بيروت

صدر منه :

١ —	انا القضـــاء	ميكي سبيلن
٢ —	مسدسي سريع	« «
٣ —	المنتقـــم	« «
٤ —	القاتل الكبير	« «
٥ —	الانسان الوحش (عدد ممتاز)	لاميل زولا
٦ —	دع الرصاص يلعلع	دان كوشمان
٧ —	المطاردة	ميكي سبيلن
٨ —	الجثة المذهبة	بيل بيلنجز
٩ —	الطريق المرعب	ل. فورمان
١٠ —	تريزا (عدد ممتاز)	لاميل زولا
١١ —	وادي الموت	لوك شورت
١٢ —	اللكمة القاتلة	جيمس هادلي شيز

وبذلك تكون انتهت مجموعة سنة ١٩٥٣ من كتاب الأهوال